

## الموقف الدولي في حوض البحر المتوسط

أيام القرن الثامن عشر<sup>(١)</sup>

بقلم

الركنورة زينب عصمت راشد

يحسن قبل الكلام عن الموقف الدولي في حوض هذا البحر أيام القرن الثامن عشر ، أن نشير الى أهم الحقائق التي أثرت في ذلك الموقف خلال القرنين السابقين ( السادس عشر والسابع عشر ) ؛ فلقد شهد أولهما تطوراً خطيراً في الموقف الدولي من هذا الحوض ، وذلك عند ما نجح العثمانيون في بسط نفوذهم على جانبه الشرقي ؛ فغيروا من لونه وطابعه ، بحيث لم يعد البحر كله مجرد بحيرة مسيحية كما كان يعتبر منذ أيام القرن الثاني عشر . بل أصبح للعثمانيين فيه أكبر نفوذ ؛ فهم قد سيطروا على سواحل اليونان ، وآسيا الصغرى ، والشام ثم مصر . ومدوا سلطانهم على سواحل أفريقيا الشمالية ، كما وقعت في أيديهم بعض جزائر الأرخيل ، وبعض الجزر الأيونية ، ثم « رودس » و « قبرص » . كذلك استولوا في النهاية على آخر قلعة من قلاع البنادقة في شرق البحر وأعنى جزيرة « كريت » . وبذلك انهارت سيادة البنادقة البحرية في شرق البحر انهياراً تاماً<sup>(٢)</sup> .

(١) قرىء هذا البحث بتاعة الجمعية الملكية للدراسات التاريخية في ٢٧ مارس

سنة ١٩٥٢ .

(٢) Fernand Braudel, La Méditerranée et Le Monde

Méditerranéen à l'Epoque de Philippe II, Paris 1949, pp. 723-sqq  
أنظر كذلك شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية تحت تعريب الدكتور أحمد عزت  
عبد الكريم ، والأستاذ توفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٣٦-١٧١ ، ٢١١-٢١٧

تلك كانت الحال في الجانب الشرقى من حوض البحر أيام القرن السادس عشر ؛ فأما جانبه الغربى فكان واقعا تحت سلطان الامبراطورية الأسبانية تطوى فيه مملكة الصقليتين و « سردينيا » ، وتبسط حمايتها على جزيرة « مالطة » كما كان تفوذ هذه الأخيرة ممتدا على ساحل الرقييرا وعلى جزيرة « قورسيقه » فقد أضحت بذلك حلقة اتصال مهمة بين فرعى أسرة « هابسبورج » في كل من أسبانيا والنمسا والأراضى المنخفضة الأسبانية . والى جانب « چنوة » بدت على مسرح السياسة في حوض البحر « دوقية سافوى » ؛ وهى وإن لم تكن تملك من سواحل البحر مثل مملكة « چنوة » ، الا أن قربها من كل من فرنسا وإيطاليا قد أعطاها قيمة استراتيجية عظيمة ، ثم هى فوق ذلك تشبه « چنوة » من حيث أهميتها كحلقة اتصال بين فرعى أسرة « هابسبورج » في أسبانيا والنمسا . وأحست تلك الدوقية بمكانها هذا الخطير فاستغلته لمصلحتها الخاصة أحسن استغلال ؛ لم ترع في ذلك عهدا ولا ميثاقا (١) .

وتستقبل الامبراطورية الأسبانية أيام القرن السابع عشر وقد أصابها من أسباب الضعف السياسى والاقتصادى ما أخرها على سبيل التقدم والنضال وأفسح المجال لدول أخرى قدر لها أن تلعب أدوارا مختلفة على مسرح السياسة في حوض البحر .

فهذه فرنسا — وكانت ما تزال تذكر فشلها في انتزاع السيادة من أسبانيا على إيطاليا — تتنبه الآن الى أهمية ذلك الحوض في عهد كل من داهيتيها الكبيرين « ريشيلو » و « مزران » . ويتجلى ذلك بوضوح أثناء حرب الثلاثين عاما . ولقد حاول « مزران » أن ينتزع من أسبانيا مملكة الصقليتين غير أن محاولته باءت بالفشل .

J. S. Corbett, England in the Mediterranean, London (١)  
1903, Vol. I, pp. 6-8.

ولم يقف الأمر عند يقظة فرنسا ، وإنما ظهرت الى جانبها دولتان  
أخريان من دول أوروبا الشمالية ، وأخذتا تشاركان في سياسة ذلك البحر ؛  
وهما هولندا ( ما يعرف بالأقاليم المتحدة في ذلك الوقت ) ثم بريطانيا التي  
ظهر أسطولها في عهد « كرمويل » على مياه ذلك البحر حوالى منتصف  
القرن السابع عشر في مطاردة الأمير « روبرت » Rupert . وينجح  
قائد الأسطول في أن يرفع علم بريطانيا لأول مرة فوق مياه هذا البحر ؛  
رفعه في كل من « مالطة » و « البندقية » و « طولون » ثم « مرسيليا » .

وهكذا تبدو لبريطانيا سهولة تحقيق سلامة الطريق الى الهند بين يدي  
قائد ذلك الأسطول الذى كان أول من خلق لها في ذلك البحر مكانا ممتازا .

وأحست فرنسا على أثر ذلك بخطر بريطانيا في حوض البحر المتوسط ،  
فسمحت لهولندا — وهى يومئذ أخطر منافس لبريطانيا في شئون البحر  
والتجارة — باستخدام ثغورها لتعينها على طرد البريطانيين من البحر .  
ولكن بريطانيا صمدت لمقاومة الفرنسيين والهولنديين معا مقاومة انتهت  
باتتصارها عليهما . فأتاح ذلك النصر لأسبانيا يومئذ أن تستعيد بعض  
تقوذهما المفقود في ذلك الحوض . وكان « كرمويل » أول من فكر في الاستيلاء  
على « جبل طارق » ، وأول من شعر بأهمية التحالف مع البرتغال ، وتمكن  
بالفعل من عقد معاهدة معها في عام ١٦٥٤ مكنته من تحقيق سياسته في  
حوض ذلك البحر ؛ اذ غدت « لشبونه » منذ ذلك التحالف مأوى للسفن  
البريطانية (١) .

كانت « طنجة » أول موقع آل ايدى البريطانيين عند مدخل هذا  
البحر ؛ حيث تنازلت لها عنها البرتغال عام ١٦٦٢ وذلك عقب زواج مليكهم

(١) يمكن تتبع تطور الموقف الدولى في حوض البحر المتوسط في تلك  
الحقبة بالتفصيل في J. S. Corbett ، نفس المرجع ، الجزء الأول ص ١٤٣-٢٩٧ ،  
والثانى ص ٢٩٨-٢٩٩

« شارل الثاني » من أميرة برتغالية . وكان لشجر « طنجة » هذا أهمية كبرى من حيث كونه محطة صالحة لتصريف التجارة والسيطرة عليها في طريقها الى أزميز (١) .

على أن بريطانيا لم تستطع الاحتفاظ بهذا الشجر طويلا ؛ ذلك لأن ملكها « شارل » الذي كان يفكر في الاستئثار بالسلطة قد انصرف الى مشاكل بلاده الداخلية وكانت يومئذ تموج بالفتن والاضطرابات ، حتى بات يعتبر « طنجة » والمحافظة عليها من الأعباء الثقيلة ، مما اضطره الى الجلاء عنها نهائيا في مارس عام ١٦٨٤ (٢) .

ثم تستقبل الدنيا أيام القرن الثامن عشر و « لويس الرابع عشر » يتربع على عرش فرنسا ، وأطماعه الكبرى وحروبه التي تثار من أجلها قد غدت خطرا يتهدد توازن القوى الدولي في أوروبا مما أثار أوروبا عليه فوقفت دولها تتكاتف لايقافه عند حده ؛ الا أن ذلك لم يثمر بسبب موقف بريطانيا التي بدا لها يومئذ أن تحايد . وظلت على حيادها هذا حتى اعتلى عرشها « وليم أورنج » فأشركها في الحلف القائم ضد « لويس الرابع عشر » . ولم يكد يفعل حتى استقبلت أوروبا خطرا آخر اثارته وراثته عرش أسبانيا الذي اعتلاه واحد من أحفاد لويس الرابع عشر ، مما طوى فرنسا وأسبانيا معا تحت راية آل « بوربون » فحرص « وليم الثالث » في مفاوضاته مع فرنسا خلال تلك الفترة على ضمان حرية ذلك البحر .

وبدت المنافسة في السيطرة على ذلك البحر على أشدها أثناء حرب « الوراثة الأسبانية » . ومع أن الاستيلاء على عرش أسبانيا كان يتضمن الاستيلاء على مستعمراتها أيضا ، الا أن هذه الأخيرة كانت فيما يظهر قليلة الأهمية كما يتضح من جميع المكاتبات الخاصة بشبه الجزيرة نفسها في ذلك .

(١) أنظر نفس المرجع ، الجزء الثاني ، ص ٣١٢ ، ٣٦٨

(٢) نفس المرجع ، الجزء الثاني ، ص ٤١٧-٤١٩

العهد ؛ فهي تشير كلها الى أهمية شبه الجزيرة وما يمكن أن تتيح للسيطر عليها من نفوذ في حوض البحر الذي بدا « لوليم الثالث » كمفتاح لحل مشاكل أوروبا جميعا . ولم يغب ذلك كله عن بال «لويس الرابع عشر» عندما شرع ينفذ وصية « شارل الثاني » فيما يتعلق بتولية حفيده فيليب عرش أسبانيا ، فهو قد أمر بتحسين غالبية نفور أسبانيا وعلى الأخص « قادس » و « بورت ماهون » في « منورقه » ثم « جبل طارق » .

ولقد حرصت بريطانيا خلال حرب « الوراثة الأسبانية » على اتخاذ أول خطوة نحو تدعيم مراكزها في حوض البحر ، فكانت التعليمات والأوامر التي زوّدَ بها أمير البحر البريطاني في عام ١٧٠٢ تنص صراحة على ضرورة الاستيلاء على أحد ثغرى « قادس » أو « جبل طارق » كما دلت الأوامر التي صدرت خلال العامين التاليين على أن سياسة بريطانيا كانت تهدف الى السيطرة على المضائق عند مدخل البحر لتأمين مواصلاته الهامة . وكان في عزمها ارسال الجزء الأكبر من أسطولها من أجل ذلك ومن أجل امداد الحرب في ايطاليا ، ثم للحصول على مركز تستطيع منه مهاجمة جنوب فرنسا الشرقي ، لتقطع السبيل بين « لويس الرابع عشر » وبين موارده العظيمة . وبدا لها منذ الهولة الأولى أن ثغر « طولون » هو خير مكان يتيح لها فرصة ذلك .

وبات خط بريطانيا في النصر يطالع الأيام من كمينين : أولهما عند «ساقوى» التي انضمت الى بريطانيا وحلفائها فعرضت فرنسا في البحر لخطر لم تستطع له ردا . وكان من جراء ذلك أن تغير الموقف من أساسه ، فتحول ميدان القتال من الأراضي المنخفضة الى منطقة « الدانوب » .

أما ثاني الكمينين ، فكان بين لفائف معاهدات « مثنين » Methuen<sup>(١)</sup> الشهيرة التي عقدتها بريطانيا مع البرتغال في عام ١٧٠٣ ، وحصلت بمقتضاها

---

H. V. Livermore, A History of Portugal, Cambridge (١)  
1947, pp. 327-329.

— الى جانب الامتيازات في البرتغال — على استخدام ثغر « لشبونة » ، مما مهد لها ولحلفائها سبيل الاستيلاء على « جبل طارق » و « بورت ماهون »<sup>(١)</sup>

وهكذا نجحت بريطانيا في الاستيلاء على « جبل طارق » في عام ١٧٠٤ .  
الا أن موقفها قد بات حرجا لا يكاد يطمئن ؛ اذ كان من الواضح أن صاحب فرنسا لن يسكت على تلك الخسارة وأن جهودا مشتركة من جانب فرنسا وأسبانيا سوف تبذل لاسترجاع « جبل طارق » . كما كان واضحا أيضا أن شرف النصر وحظ الولاية لم يكونا من نصيب بريطانيا وحدها ؛ وانما اشتركت في ذلك أساطيل الحلفاء تحت راية « شارل الثالث » .

ولقد حاولت فرنسا وأسبانيا خلال عامي ١٧٠٤ ، ١٧٠٥ أن تستردا ذلك الموقع ، ولكنهما لم تفلحا في ذلك .

وهكذا نجح « مارلبرا » Marlborough في تحقيق خطته كما رسمها وسارت العمليات الحربية الجديدة نحو تحقيق الهدف سيرا حثيثا ثم ووجهت فرنسا عند حدودها الجنوبية بحرب يغذيها أعداؤها في البحر الذي تحول بذلك من وسيلة — كانت ترى فيها فرنسا عونا على توحيد عملياتها الحربية في أسبانيا وإيطاليا — الى عائق يقوم في سبيل تحقيق ذلك ، وبالتالي الى سبيل يتيح لأعدائها تنظيم عملياتهم الحربية لمهاجمتها .

هنالك وضحت أهمية « جبل طارق » العسكرية ، وكانت فيما يظهر غائبة عن الأذهان حتى تلك الفترة . فأما أهميته التجارية فقد كان يعرفها البريطانيون كما عرفوا من قبل أهمية ثغر « طنجه » .

ولن يقنع العسكريون في بريطانيا باستيلائهم على « جبل طارق » مع اعترافهم بأهميته في استقبال الأساطيل والتحكم في مدخل البحر ؛ وانما

---

(١) H. A. L. Fisher ; A History of Europe, London 3rd Edition, 1949, Vol. I, p. 685.

باتوا يفكرون في غيره أيضا ، اذ كانوا يرون ضرورة السيطرة على ثغر آخر يتخذون منه مأوى لسفائنهم في فصل الشتاء . ولذا ظل مشروع تحطيم ثغر « طولون » بعيدا عن التحقيق ما دامت السفن البريطانية وسفن الحلفاء مضطرة الى الانسحاب لتمضية فصل الشتاء في « لشبونة » . كما بات من العسير على بريطانيا وحلفائها أن يسيطروا على ذلك البحر قبل أن تتحقق لهم السيطرة على مثل ذلك الثغر الذى يريدون . اذ كانت « مرسيليا » لا تلبث أن تسترد نشاطها التجارى على أثر انسحاب سفن بريطانيا وحلفائها من البحر ، كما كانت الحرب في ايطاليا « وكتالونيا » — نتيجة لذلك — تنذر بطول مداها دون نتيجة حاسمة سريعة .

وهناك بدت ضرورة الاستيلاء على جزيرة « منورقة » Minorca لما عرف عن صلاحية ثغرها « بورت ماهون » Port Mahon الذى كان يعتبر يومئذ خير ثغور البحر المتوسط . وقد تم لبريطانيا الاستيلاء عليه بالفعل في عام ١٧٠٨ . وكان لنجاح بريطانيا وحلفائها يومئذ أثر بالغ الخطورة في كسب المؤيدين والأنصار ؛ فلم يلبث البابا أن اعترف بحق آل « هابسبورج » في عرش أسبانيا . وكان لذلك كله نتائج الوخيمة في كل من فرنسا وأسبانيا وايطاليا .

انتهت حرب « الوراثة الأسبانية » بصلح « أترخت » عام ١٧١٣ الذى ترك في أيدي البريطانيين « بورت ماهون » « وجبل طارق » ، وذلك رغم كل الاعتراضات التى أبدت من جانب الهولنديين يومئذ . وفي ذلك ما يشير الى قوة مركز بريطانيا من ناحية ، والى تفوقها على هولندا من ناحية أخرى ، ثم الى بدء ظهور نجمها السياسى في سماء البحر المتوسط من ناحية ثالثة (١) .

---

(١) أنظر Corbett ، نفس المرجع ، الجزء الثانى ، ص ٤٥٩ — ٥٦٨ لتتبع ظهور المنافسة بين الدول للسيطرة على ذلك الحوض ، وتطورها خلال حرب الوراثة الأسبانية .

ومن ذلك نرى أن « وليم الثالث » كان أول من فطن الى أهمية ذلك الحوض في السيطرة على السياسة الأوروبية . ومع ذلك فينبغى أن نشير هنا الى حقيقة هامة وهى أن اهتمام بريطانيا بسياسة ذلك البحر ظل فاترا ضعيفا حوالى ثلاثة أرباع قرن من تاريخ سقوط « جبل طارق » فى يدها . ولم يحصل مطلقا فى تلك الفترة أن اتفق ملك بريطانيا ولا وزراؤها ، ولا سفراؤها فى مدريد على سياسة معينة ازاء « جبل طارق » ؛ ولسوف يتضح لنا فيما يلى أن عروضا ومحاولات كانت فى بعض الأحيان تبدى من جانب أولئك جميعا للتنازل عن ذلك الموقع لأسبانيا (١) .

فقدت أسبانيا بمقتضى ذلك الصلح كثيرا من ممتلكاتها الأخرى فى حوض البحر ؛ فنزلت للنمسا — الى جانب الأراضي المنخفضة — عن « نابلى » و « سردينيا » ، « وميلان » ، كما استحوذت « ساقوى » على جزيرة « صقلية » وضمتها الى بقية أملاكها . على أن تلك النتائج لم ترض الامبراطور ولم ترض أسبانيا ، فهذا « شارل الثالث » مازال يعتبر نفسه ملك أسبانيا الحقيقى . وهذا « فيليب الخامس » يسوءه أن يفقد أملاكه فى كل من أسبانيا وإيطاليا ، وهى أملاك يرى أنه خليف بالاحتفاظ بها كما احتفظ بها من سبقه من ملوك أسبانيا . وأولئك الايطاليون أنفسهم يمتقنون حكم النمسا ويؤمنهم فى ذلك اثنان من الايطاليين كانا يسيطران يومئذ على شئون أسبانيا . وهما : « البرونى » Alberoni كبير وزراء أسبانيا ثم Elisabeth Farnese مليكة هذه البلاد .

هنالك انصرفت كل من بريطانيا وهولندا الى المحافظة على السلم فى أوروبا ، وكانوا يرونه فى الحرص على احترام شروط صلح أترخت . وعقدوا تأمينا لذلك ما أسموه « بالتحالف الثلاثى » فى عام ١٧١٧ . ومع ذلك فقد

(١) Walter F. Lord, England and France in the Mediterranean 1660-1830, London 1901, p. 8.



أعلنت أسبانيا الحرب على الامبراطور ، ونجحت قواتها بالفعل في الاستيلاء على « سردينيا » ، مما جعل الامبراطور يقدم على الانضمام الى ذلك التحالف ليحقق بذلك « الحلف الرباعي » في عام ١٧١٨ (١) .

وهنا يحاول سفير انجلترا في مدريد أن يقنع « ألبروني » بالانضمام الى التحالف الرباعي ، عارضا عليه أن تتنازل له انجلترا مقابل ذلك عن « جبل طارق » . وظاهر أن العوامل التي دعت السفير البريطاني الى ذلك العرض السخى أن أسبانيا في تلك الفترة كانت تسيطر على الموقف الأوربي في حوض البحر المتوسط ، كما كانت تهدد مركز أسرة «هانوفر» . Hanover في انجلترا ، ذلك لأن « ألبروني » كان قد تحالف مع « شارل الثاني عشر » ملك السويد ومع روسيا لاعادة المدعى عرش انجلترا من أسرة استيوارث ( جيمس الثالث بن جيمس الثاني ) وكان قد بيت النية على غزو انجلترا ، كما تعهدت روسيا بتقديم السفن اللازمة لنقل القوات السويدية . فلا عجب اذن فيما عرضه السفير البريطاني من نزول انجلترا عن « جبل طارق » . الا أن « ألبروني » — وقد أخذ على نفسه أن يضع أسبانيا في موضع المسيطر على شئون أوربا ، بعد أن أسكرته انتصاراته الأولى ، فظن أن من السهل تحقيق مشروعه الخاص باعادة « جيمس الثالث » الى انجلترا — رأى أن يرفض العرض الذي سيكون من الممكن تحقيقه اذا هو وفق في تنفيذ خطته . فاستمر يتابع خطته في حوض البحر المتوسط مهاجما « صقلية » . ولكن الأسطول البريطاني استطاع أن يشتمل الأسطول الأسباني عند رأس « بيسارو » Passaro في أغسطس سنة ١٧١٨ . وفي نوفمبر من نفس العام ، تخلت « ساقوى » عن حليفها أسبانيا وانضمت الى « الحلف الرباعي » .

W. F. Reddaway, A History of Europe 1715-1814, (١)  
London 1936, pp. 131-135.

وهكذا فقدت أسبانيا سيطرتها على الموقف في حوض البحر المتوسط ،  
كما تفرغ النمساويون — عقب انتصارهم على الأتراك العثمانيين — الى  
مواجهة الموقف ، وقد « ألبروني » الأمل في الاحتفاظ بانتصاراته الحديثة .  
ولم تكن أخبار الشمال بخير من ذلك . اذ قتل « شارل الثاني عشر » في  
ديسمبر ١٧١٨ ، مما أحبط خطة « ألبروني » في الهجوم على إنجلترا ،  
وبذلك أفقدته تلك الحوادث والمصائب ذلك المركز القوي الذي يتمتع به  
فاستبعد في ديسمبر ١٧١٩ .

ومع أن « ألبروني » قد اختفى من الميدان الا أن فكرة استرداد  
« جبل طارق » لم تختف باختفائه ، فعمل « فيليب الخامس » على استرداده  
واعتمد في ذلك على صداقة Stanhope سفير بريطانيا في مدريد ،  
وقد كان من أنصار فكرة رد ذلك الموقع لأسبانيا . ولكن مساعي « ستانهوب »  
لم تنجح نظرا لمعارضة البرلمان الانجليزي الشديدة لذلك . وكان سفير  
بريطانيا في مدريد يرمى من وراء سياسته هذه الى الحصول على تحالفه  
مع أسبانيا ، ثم الى منعها من الاتحاد مع فرنسا . فنصح بأن يُطلب من أسبانيا  
أن تتنازل لانجلترا عن « فلوريدا » أو « هسبنولا » في مقابل استرداد  
« جبل طارق » حتى تستطيع الحكومة الانجليزية أن تجرؤ على تقديم عرضها  
هذا للبرلمان . وكانت هذه هي المحاولة الثانية لرد « جبل طارق » لأسبانيا .  
ولكنها فشلت أيضا . وهكذا بينما كان الملك ووزرائه مخلصين في رغبتهم  
في رد « جبل طارق » لأسبانيا ، كان البرلمان يرفض التنازل عن ذلك  
الموقع <sup>(١)</sup> . وقد صدقت تنبؤات « ستانهوب » في أن رغبة أسبانيا في  
استرداد « جبل طارق » ستدفعها الى أحضان فرنسا . وقد كانت تلك  
الرغبة عاملا هاما في نشأة ما يعرف بالتعاقد الأسرى Pacte de Famille

(١) يمكن تتبع تاريخ تلك العروض الخاصة بالتنازل عن جبل طارق لأسبانيا  
في Lord ، نفس المرجع ، ص ١٠-١٤

بين فرنسا وأسبانيا <sup>(١)</sup> كما كان استيلاء انجلترا على ذلك الموقع ، وعلى « بورت ماهون » سببا في تسوية العلاقات بين الدولتين <sup>(٢)</sup> .

اضطرت اسبانيا أن تخضع لشروط الحلفاء عام ١٧٢٠ ، فاستعاد الامبراطور « صقلية » ، كما حصلت « سافوى » على تاج « سردينيا » ( بدلا عن صقلية ) وهكذا لم تحقق أسبانيا مطامعها في ايطاليا . ولكن لا تلبث Elisabeth Farnese أن تحقق مطامعها في « معاهدة فيينا » الثالثة ( ١٧٣٥ — ١٧٣٨ ) التي أنهت حرب « الوراثة البولندية » فتزوج ابنها الأكبر Don Carlos ملكا على مملكة الصقليتين <sup>(٣)</sup> ولم تقف مطامع « اليزابث فرنيز » عند هذا الحد بل زجت بزوجها « فيليب الخامس » في حرب الوراثة النمساوية طمعا في أن تضيف الى أملاكها أملاكا جديدة في ايطاليا . وهنا تتقارب فرنسا وأسبانيا في علاقتهما فتجددان معاهدة التحالف الأسرى ( وكانت أول معاهدة أسرية وقعت بينهما هي معاهدة Escorial في عام ١٧٣٣ ) فتعقدان معاهدة Fontainebleau في عام ١٧٤٣ وفيها وافقت فرنسا على تأييد أسبانيا في سياستها الإيطالية كما تعهدت فرنسا بمساعدة أسبانيا على استرداد « جبل طارق » . وقد كانت فرنسا في حاجة الى معونة أسبانيا في صراعها الاستعماري مع انجلترا فيما يتعلق بأمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية والهند . وتمكنت أسبانيا من تحقيق سياستها في ايطاليا بمقتضى صلح « اكس لاشابل » Aix-la-Chapelle الذي أنهى حرب الوراثة النمساوية ، فنص على « احتفاظ Don Carlos بمملكة الصقليتين كما قضى بمنح « بارما » لدون فيليب

(١) Stetson Conn, Gibraltar in British Diplomacy in the eighteenth Century (Yale Historical Publications Miscellany, Vol. XLI), London 1942, p. 2.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧

(٣) أنظر تفاصيل ذلك في Reddaway ، نفس المرجع ، ١٤٣-١٥٣

Don Philip الابن الثانى لايلازابث فرنيز Elisabeth Farnese وقد منحت تلك التسوية ايطاليا - التى كانت مهد الصراع بين « البوربون » و « الهابسبورج » - فترة نصف قرن من السلام النسبى بينما تركت سائر المسائل الأخرى بين انجلترا وفرنسا من ناحية ، وبين انجلترا وأسبانيا من ناحية ثانية ، وبين بروسيا والنمسا من ناحية ثالثة - معلقة . هنالك كسبت أسرة « البوربون » موزعا ثالثا يحكم فيه فرع منها وأعادت الى أسبانيا نفوذها فى ايطاليا ، ذلك النفوذ الذى تمتعت به زهاء قرنين ثم فقدته فى معاهدة « أترخت » . ولو كانت أحوال أسبانيا الداخلية منتظمة اذا لأفادت من تلك الفترة فى موقفها القوى فى حوض البحر المتوسط فائدة عظمى ، ولكنها كانت منحلة تعاني فى شئونها الداخلية اختلالا عظيما مما جعل ملكها الجديد « فرديناند السادس » الذى خلف « فيليب الخامس » عام ١٧٤٦ يركز جهوده فى الإصلاح الداخلى ، ويتبع سياسة حياد كاملة فى الصراع بين انجلترا وفرنسا عند وقوع حرب سبع السنوات واستمر كذلك الى أن مات فى عام ١٧٥٩ وكان يؤيده فى تلك السياسة رئيس وزرائه « وول » Wall (١) وقد استفادت انجلترا من ذلك الموقف فائدة عظمى فى صراعها مع فرنسا .

لذلك ظلت انجلترا مهيمنة على حوض البحر المتوسط بالرغم من اتساع أملاك أسرة « البوربون » فى ذلك الحوض . ولكن عندما سقطت « منورقة » فى يد فرنسا سنة ١٧٥٦ عند مطلع حرب سبع السنوات فقدت انجلترا سيطرتها على ذلك البحر ، ولم يستطع القائد البحرى الانجليزى Hawke أن يتعرض للأسطول الفرنسى فى « طولون » ، بل

(١) أنظر سياسة كل من « فرديناند السادس » و « وول » فى

Zenab E. Rashed, The Peace of Paris 1763, London 1951, pp. 21-22, 33-37.

اضطر الى العودة الى انجلترا وهناك استطاعت فرنسا أن تسيطر على ذلك البحر ، وأخذ قناصل انجلترا في الثغور الإيطالية والأسبانية يرددون الشكاوى لدى حكومتهم من تحكم الفرنسيين في سفنهم . كما أصبحت « مالطة » عائقا في سبيل التجارة الانجليزية في ذلك الحوض . واشتد نشاط قراصنة دول البربر . وقد استطاع جزء مهم من الأسطول الفرنسى في « طولون » خلال تلك الظروف أن يبارح حوض البحر المتوسط لاختضاع « لويزبرج » في أمريكا دون أن تتعرض له السفن الانجليزية (١) .

وقد رأى « وليم پت » William Pitt أن يستخدم السياسة لحماية تجارة الشرق وتجارة حوض البحر المتوسط . وكانت القوى الأخرى التي تتحكم في ذلك الحوض في تلك الفترة الى جانب فرنسا هي : أسبانيا « ونابلى » « وسردينيا » ؛ فبذل « پت » جهده لضمان حياد تلك القوى أثناء نزاعه مع فرنسا . وقد سهل مهمة « پت » في الحصول على حياد أسبانيا ما كان يدين به ملكها « فرديناند السادس » من اتباع سياسة حياد مطلقة من ناحية ، وما كان بين « پت » وكبير وزراء أسبانيا « وول » Wall من صداقة من ناحية أخرى . ومع ذلك فقد حاول « پت » في بادئ الأمر عام ١٧٥٧ عقب سقوط « منورقة » أن يحصل على صداقة أسبانيا ومعاودتها في حربه ضد فرنسا وقدم لها — سرا — عن طريق السفير البريطانى في مدريد « كين » Keene « جبل طارق » في مقابل معاودتها له في استرداد « منورقة » من فرنسا ( ونلاحظ أن هذه هي المرة الثالثة التي يعرض فيها وزراء انجلترا « جبل طارق » على أسبانيا ) ولكن « فرديناند السادس » رفض وأبى أن يخرج عن سياسة الحياد التي انتهجها (٢) .

---

(١) Basil Williams, The Life of William Pitt, Earl of Chatham, Vol. I, p. 301.

(٢) أنظر Z. E. Rashed المرجع السابق ، ص ٨-٩

ونجح « پت » كذلك فى الحصول على حياد الملكتين الآخرين ؛  
« سردينيا » « و نابلى » . وعلى الرغم من متاخمة أملاك « سردينيا »  
لفرنسا ، تعهد ملكها بتقديم التسهيلات اللازمة للتجار الانجليز فى ممتلكاته .  
وقد كان من حسن حظ انجلترا أن استطاع « وليم پت » أن يضمن لها  
فى بداية تلك الحرب مع فرنسا حياد دول البحر المتوسط ، ولولا ذلك  
لفقدت انجلترا أثناء الحرب تجارتها مع الشرق وفى حوض البحر ، ولاضطر  
قناصل انجلترا فى ثغور ذلك البحر المختلفة الى مغادرة مراكزهم ، ولفقدت  
انجلترا بالتالى عيونها الساهرة على تتبع العمليات البحرية التى يقوم بها  
الأسطول الفرنسى فى ذلك البحر (١) .

غير أن أسبانيا خرجت عن هذا الحياد بعد تولية « دون كارلوس »  
( ملك نابلى ) على عرشها باسم « شارل الثالث » ، بعد توليته بسنتين ،  
فعقدت أسبانيا مع فرنسا معاهدات دفاعية هجومية فى سنة ١٨٦١ ، ويهمننا  
أن نذكر منها تجديد معاهدة « التحالف الأسرى » للمرة الثالثة ، وتعهد  
فرنسا برد « منورقة » الى أسبانيا حيث كان النصر حليفا لفرنسا وأسبانيا  
فى النهاية . وقد كانت رغبة « شارل الثالث » فى استرداد « جبل طارق »  
عاملا له أهميته فى دخوله الحرب ضد انجلترا سنة ١٧٦٢ (٢) .

انتهت تلك الفترة فى النزاع بين فرنسا وانجلترا ( فترة حرب سبع  
السنوات ) بصلح باريس عام ١٧٦٣ الذى فقدت فرنسا بمقتضاه معظم  
مستعمراتها ؛ فقدت كندا كلها كما فقدت مركزها على الساحل الغربى  
الأفريقى ، ثم فقدت مكائنها فى الهند ، ولم تحتفظ الا ببعض المواقع فى

(١) Basil Williams ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ٣٠٢

(٢) أنظر فى سياسة شارل الثالث وتجديد التحالف الأسرى للمرة الثالثة  
The Peace of Paris 1763, Chapter III, pp. 33-46.

جزر الهند الغربية (١) فماذا كانت النتائج التي ترتبت على ذلك بالنسبة لحوض البحر المتوسط ؟ . هل عندما اضطرت فرنسا أن تتخلى عن أملاكها في المستعمرات النائية ، عملت على تعويض نفسها من ذلك بالتوسع في أوروبا ؟ . لقد اضطرت فرنسا أن تتنازل لانجلترا عن « منورقة » بمقتضى صلح باريس ١٧٦٣ ؛ كما رأت ان تعوض نفسها من بعض الخسارة التي لحقت بها في ذلك الصلح بوضع يدها على « قورسيقه » وأن تخدم بذلك غرضا آخر وهو تقوية مركزها نظرا لقرب تلك الجزيرة من أراضيها . ويجب أن نلاحظ هنا أنه في عام ١٧٦٨ — وهو العام الذي استولت فيه فرنسا على « قورسيقه » في مقابل مبلغ من المال دفعته « لجنوه » — أن أهمية حوض البحر المتوسط كطريق يؤدي الى الشرق لم تكن قد ظهرت بعد ، كما أن فرنسا لم تعد ترى فيه تلك الرابطة التي تربط انجلترا بامبراطوريتها في الشرق ؛ فتعمل بالتالي على قطع تلك الرابطة ، بل غاية ما في الأمر أنها كانت تخشى أن تسيء اليها مطامع انجلترا في ذلك البحر (٢) .

استأنفت انجلترا عقب « صلح باريس » المركز الذي كانت تتمتع به في حوض البحر المتوسط عقب صلح « أترخت » ، فقد ظلت محتلة « جبل طارق » « ومنورقة » . وقد زاد استيلاء فرنسا على « قورسيقه » في أهمية هذين الموضوعين اللذين تحتلهما انجلترا في ذلك الحوض . الا أن استيلاء فرنسا على « قورسيقه » لم يؤثر كثيرا على مركز انجلترا في ذلك البحر ؛ ومع ذلك فقد عولت كل من فرنسا وأسبانيا على طرد الانجليز منه ؛ وانهزتا فرصة النزاع الذي كان قائما بين انجلترا ومستعمراتها الأمريكية لاعلان الحرب على انجلترا عام ١٧٧٩ . فهاجمت قوتاهما البحرية

(١) أنظر شروط معاهدة صلح باريس في المرجع السابق . ص ٢١٢-٢٢٩

(٢) Lord ، المرجع السابق ، ص ٣٦-٣٧

كلا من « منورقة » « وجبل طارق » . فسقطت « منورقة » في عام ١٧٨٢ ، وكانت كسبا عظيما لأعداء انجلترا . أما « جبل طارق » فقد بقي في يد انجلترا على الرغم من حصار دام ثلاث سنوات .

وبمقتضى صلح « فرساي » Versailles ( سنة ١٧٨٣ ) ، الذي قرر استقلال الولايات المتحدة ، استردت أسبانيا « منورقة » ، بينما احتفظت انجلترا « بجبل طارق » . وقد ظلت انجلترا اثني عشر عاما بعد ذلك التاريخ لا تقوم بأى عمليات حربية في حوض البحر المتوسط ، فلم تحاول مثلا أن تضع يدها على موقع آخر في ذلك البحر ليؤيد مركزها في « جبل طارق » (١) .

وفي عام ١٧٨٩ وقعت الثورة الفرنسية في فرنسا فكان لها آثارها الواضحة على سياسة ذلك الحوض . فقد عاد Pasquale de Paoli القورسيقي الى « قورسيقه » ليعيدها تحت حكمه . ثم اضطرت انجلترا أن تتدخل في تلك الحوادث منجزة الى قضية « البوربون » . فعاونت الخارجين على الثورة في طولون واحتلتها في ١٧٩٣ ، ولكن نابليون نجح في اجلاء القوات الانجليزية عنها . وقد اضطرت أن تترك في ذلك الميناء خمسة عشرة سفينة ، كانت هي نواة الأسطول الذي نقل « نابليون » ورجاله الى مصر بعد ذلك التاريخ بأربعة أعوام ونصف . وقد كانت النتيجة المباشرة لجلاء القوات الانجليزية عن « طولون » احتلال « قورسيقه » . وكان Pasquale de Paoli هو الذي دعا انجلترا الى ذلك ، لأنه رأى استحالة الاحتفاظ بها بمفرده فظلت انجلترا تحتلها ثلاث سنوات . ذلك أنه في عام ١٧٩٥ لم يبق لفرنسا من أعداء في القارة الأوروبية الا النمسا . وقد تمكن « نابليون » من هزيمتها هزيمة ساحقة في إيطاليا في العام التالي ( ١٧٩٦ ) وأصبحت فرنسا بذلك تسيطر على شبه

(١) أنظر نفس المرجع ، ص ٣٧-٤٠



الجزيرة كلها . ووقفت انجلترا عندئذ موقف المدافع عن نفسها ؛ فاحتلت جزيرة « البا » Elba ثم استولت على « كبراجا » Capraja الى الشمال من « البا » . ولكن في مستهل عام ١٧٩٧ اضطرت انجلترا الى التخلي عن مواقعها الثلاثة في حوض البحر المتوسط (Capraja. Elba. Corsica) وسحبت قواتها من ذلك البحر ، ثم ركزتها في « جبل طارق » .

هكذا عاد الموقف في حوض البحر المتوسط الى ما كان عليه منذ مائة عام مضت ، ذلك الموقف الذى طالما تمت فرنسا تحقيقه ، بل كانت تؤيده بعض الأحزاب في انجلترا نفسها ؛ وهو انسحاب القوات الانجليزية من حوض ذلك البحر . وفى عام ١٧٩٧ لم يعد لانجلترا تفوز ما فى ذلك الحوض ؛ اللهم الا اذا استثنينا « جبل طارق » . فماذا كانت النتائج التى ترتبت على انسحاب انجلترا من حوض البحر المتوسط ؟ كانت النتيجة المباشرة لذلك اندفاع فرنسا نحو الشرق . وكانت فرنسا تعد العدة لذلك قبل وقوع تلك الحوادث بعام عندما حصلت من أملاك امبراطورية البندقية على « كورفو » Corfu بقلعتها الحصينة ومينائها الصالح لايواء السفن ؛ مما دعا « نابليون » الى التصريح بأنه يكفيه الاستيلاء على « كورفو » و « مالطة » لكى يسيطر على البحر المتوسط . ولما كانت « كورفو » فى يده ، فقد كان عليه أن يستولى على « مالطة » وفعلا تم له ذلك فى عام ١٧٩٨ وذلك فى طريقه الى غزو مصر .

ومهما تكن الأسباب التى دفعت « نابليون » وحكومة الادارة الى القيام بمشروع الحملة على مصر ، فقد كان واضحا أن فرنسا رأت أن حير وسيلة لاضعاف انجلترا وهزيمتها هى مهاجمتها فى مستعمراتها فى الشرق وذلك بقطع مواصلاتها مع مستعمراتها فى الهند . وقد أحاطت فرنسا تلك الحملة بكل وسائل الكتمان . ومع ذلك بارح القائد البحرى « نلسن » Nelson انجلترا فى ابريل سنة ١٧٩٨ ، وفى ٢ مايو من نفس العام ، أى قبل خروج الحملة الفرنسية الى البحر ، كان هو قد تسلل بأسطوله الى

مياه ذلك البحر ، وكان غرضه من ذلك أن يعرف وجهة الأسطول الفرنسي ؛ وفي ١٩ مايو من نفس العام غادر « بونابرت » ثغر طولون واستطاع في ١٢ يونية أن يستحوذ على « مالطة » . غير أن « نلسن » لم يلبث أن أحرز انتصارا حاسما على قوات الفرنسيين عندما حطم أسطولهم في معركة أبو قير البحرية وذلك في أغسطس عام ١٧٩٨ ولما لم يمض على القوات الفرنسية في مصر شهر واحد .

وهنا تترى قليلا لنسترجع أهم الحوادث والتغيرات التي طرأت على الموقف الدولي في حوض البحر المتوسط عام ١٧٩٨ ، وفيه كانت فرنسا تتمتع بسلطان عظيم في ذلك الحوض ؛ فهي تسيطر على « قورسيقه » وغيرها من الجزر التي بارحها البريطانيون ، كما تتمتع بنفوذها على « چنوه » التي ضمت اليها وعلى بعض الجزر الأيونية التي اقتطعتها من أملاك البنادقة . وهذه « مالطة » التي سيطروا عليها في طريقهم الى مصر كما سيطروا على الاسكندرية . بينما لم تكن بريطانيا تملك في هذا البحر غير « جبل طارق » ؛ فكانت قواتها بذلك في حكم المستبعدة عن مياه ذلك البحر . ولكن البحر لم يلبث غير قليل حتى شهد في نفس العام انتصار « نلسن » الرائع على قوات الفرنسيين في خليج أبو قير . وبعد قليل وقعت « مالطة » تحت نفوذ البريطانيين ، ثم تم استيلاؤهم للمرة الثالثة على « منورقة » . كما استولت قوات الأتراك والروس على الجزر الأيونية التي كانت واقعة تحت سلطان فرنسا .

وهكذا شهد عام ١٧٩٨ تطورا خطيرا في ادراك السياسة الأوروبيين لأهمية ذلك البحر ؛ لكأنما كانت حملة « بونابرت » على مصر بمثابة ناقوس الخطر لم يكذب يقرع أذهان أوربا حتى تنبعت دولها الى قيمة هذا البحر . وأدركت بريطانيا أن انسحابها منه قد أتاح لفرنسا فرصة السيطرة عليه كما تبين لها أن نشاط فرنسا في حوضه لا سيما في هذا العام انما كان خطرا يهدد المصالح البريطانية . وهنالك تضاعف حرصها على الاحتفاظ بما وقع في يدها من ثغوره وجزره والعمل على الاستحواذ على مواقع

أخرى . ولولا مهارة « نلسن » وصدق ادراكه وبعد نظره وسرعة حركته ومقدرته البحرية الفائقة لاستطاع « بونابرت » - ولو الى حين - أن يتمتع بمركز ممتاز في مياه هذا البحر . ولما حاول السيطرة عليه بعد ذلك التاريخ بخمسة أعوام أخفق لأن ظروفه يومئذ لم تمكنه من ذلك ؛ اذ كانت بريطانيا قد تنبّهت بما في ذلك من خطر على حياتها الاقتصادية والسياسية . وكانت محاولة بونابرت المذكورة بعد نقد معاهدة « أميان » Amiens عام ١٨٠٣ أى بعد الحملة على مصر بخمس سنوات كانت كلها أيام قلق شديد بالنسبة للبريطانيين نظرا لما بلغته فرنسا من القوة بعد معاهدة «أميان» عام ١٨٠٢ .

ولقد كان السلام في تلك الفترة يتوقف على مصير جزيرة « مالطة » التي نص صلح « أميان » على ردها الى فرسان القديس يوحنا . وكانت تحتلها الفرق البريطانية منذ أن خضعت لانجلترا في سبتمبر ١٨٠٠ بعد حصار دام عامين . وكانت بريطانيا تصر على الاحتفاظ بها . بينما يحرص « بونابرت » على الاستيلاء عليها ويرى أن خروجها من يده يضيع عليه سلطانه في البحر المتوسط الذي كان يطمح في السيطرة عليه . ولم يكن غريبا أن تتمسك كل من بريطانيا وفرنسا بتلك الجزيرة لأنها كانت بمثابة المدخل الى الشرق . ومن ثم قامت الحرب بينهما من جديد . وحاول « بونابرت » في تلك الفترة أن يمد سلطانه على ايطاليا ليضعف بذلك نفوذ بريطانيا في حوض البحر . ونجحت القوات الفرنسية في الاستيلاء على Pescara, Otranto, Brindisi, Taranto . الا أن «بونابرت» بفعلته هذه قد أوقع قواته في ايطاليا بين قوات البريطانيين في « مالطة » وقوات الروس في الجزر الأيونية . وعاندت الظروف « بونابرت » الذي كان يرمى الى هزيمة انجلترا في البحر فأصابه الفشل ، وفسد تديره في عام ١٨٠٥ عندما تحطمت قواته البحرية في معركة « الطرف الأغر » فبدا له بعد ذلك أن يغادر البحر الى البر ليحقق فيه ما لم يتح له في البحر . وقد أتاحت له بعض الانتصارات مركزا قويا في القارة الأوروبية فعاوده الأمل

في السيطرة على حوض البحر المتوسط . وكانت « نابلي » هي المملكة الوحيدة في إيطاليا التي لم تكن يومئذ واقعة تحت سلطانه فأخذها وجعل عليها أخاه « جوزيف » الذي خلفه القائد « مورا Murat » عند ما آل الى الأول عرش أسبانيا . ولما أراد « بونابرت » استغلال « نابلي » في السيطرة على « صقلية » لم يستطع أخوه أمر ذلك اذ كانت تعوزه قوات البحر التي انحطمت في موقعلة « الطرف الأغر » . هنالك سارعت انجلترا الى الاستيلاء عليها .

ومن ذلك يبدو أن محاولة فرنسا في السيطرة على حوض البحر للمرة الثانية قد ساعدت بريطانيا على تمكين سلطانها في ذلك البحر كما فتحت أمامها الأبواب لمهاجمة الامبراطورية الفرنسية . وبذلك وقع « بونابرت » في قبضة بريطانيا البحرية . ولم يخضع مع ذلك ولم يهادن وانما وقف يناضل ليسترد نفوذه في ذلك البحر . فلما اجتمع مع « اسكندر » قيصر الروس في « تيلست » Tilsit عام ١٨٠٧ تنازل ذلك الأخير لفرنسا عن الجزر الأيونية . ولكن بريطانيا لم تلبث أن احتلت معظمها وان كانت لم تحتفظ بعد ذلك بغير « مالطة » ؛ فهي قد نزلت عن « منورقة » نهائيا لأسبانيا بمقتضى صلح « أميان » وردت مصر الى تركيا ، وصقلية الى نابلي (١) .

ذلك هو حوض البحر المتوسط في بداية القرن التاسع عشر حيث انتهت مغامرات فرنسا فيه وجهودها المتواصلة الى قصر نفوذها على ساحلها المطل عليه من الشمال ثم على جزيرة « قورسيقة » ؛ وان كانت قد عوضت خسارتها فيه بعد ذلك ولكن على حساب دول البربر في شمال أفريقية تلك الدول التي تركت وشأنها أثناء الصراع بين فرنسا وانجلترا من أجل السيطرة على مياه ذلك الحوض . وكانت فرنسا أسرع الدول الأوروبية الى الاعتداء على تلك الدول فطوت منها الجزائر في عام ١٨٣٠ ؛

---

(١) أنظر تطور الموقف الدولي في حوض البحر المتوسط منذ وقوع حوادث الثورة الفرنسية في المرجع السابق ، ص ٤٠ - ٦١

كما كانت أول دولة في أوروبا تنبعت الى قيمة ذلك البحر كطريق يؤدي الى الشرق في نهاية القرن الثامن عشر . كذلك فقدت أسبانيا تلك المكانة التي كانت تتمتع بها ابان القرن السادس عشر وفي فترات متقطعة أيام القرنين التاليين ؛ فمع أنها استردت « منورقة » فان بريطانيا ظلت محتفظة بجبل طارق . كما أدبل منها الى النمسا في السيطرة على شئون إيطاليا ؛ فخرجت من يدها « البندقية » « ولبارديا » وسائر الأقاليم الإيطالية ، كما استردت النمسا فوق ذلك « تريستا » وساحل « دلماشيا » . وحرص الساسة في أوروبا على تقوية مملكة «سردينيا» فضموا اليها «جنوة» « وسافوى » ؛ لكننا كانوا يعدونها للقيام بدورها الهام في توحيد إيطاليا .

وظاهر مما تقدم أن بريطانيا لم يكن لها من الأملاك ما يتاخم ذلك الحوض ولم تكن لها سواحل تطل عليه ومع ذلك فقد وفقت فيه الى مركز ممتاز يسيطر على مركزه الغربى كما احتلت في وسطه « مالطه » واستحوزت في شرقه على بعض الجزر الأيونية ثم أخذت تتطلع من وراء ذلك الى توسيع نفوذها في شرقه لتأمين طريقها الى الهند وقد شهد القرن التاسع عشر معاركها الفاصلة في هذه الناحية .

